فتح المسلمين لمصر (١)

ما لبث الاسلام ان ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز الثماني عشرة سنة

فلما رأى هرقل الروماني ملك القسطنطينية ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلادهِ عدوةً اوجس خيفةً على باقيها ولا سيَّما مصر الاَّ انهُ لم يكن في حسبانهِ ان العرب يقدمون الى مصر منتخبين حالاً على اثر فتوحاتهم الكثيرة فأقام بينهُ وبين الخليفة الامام عمر بن الخطاب (رض) معاهدةً مآلها ان يدفع الرومان جزيةً سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم عن فتوح مصر . الاَّ ان هذه الجزية لم تكن تدفع في حينها وبالقدر المعيَّن فاعتبر الخليفة تلك المعاهدة لاغيةً

وكان عمرو بن العاص لا يفتر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها لانهُ كان قد ذهب اليها قبل ان اعتنق الدين الاسلامي ورأى فيها من العظمة والمجد ما جعلهُ شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول لهُ "انك ان افتتحتها كانت قوَّةً للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب" وكان الامام عمر (رض) يتخوَّف من ذلك ولا سيَّما بعد ان اقام المعاهدة بينهُ وبين هرقل ولكنهُ بعد ان نُقِضَت على ما تقدَّم رأى ان يجيب طلبهُ فانفذ اليهِ ان يسير باربعة آلاف رجل كلهم من عكٍّ وقال لهُ "سِر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي سريعاً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيهِ بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامضِ لوجهك واستعن بالله واستنصرهُ" وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بايام فسار عمرو بن العاص ومن معهُ قاصدًا مصر وهو يكاد لا يصدق ان أُذِنَ لهُ بذلك فما بلغ رفح (٢) حتى ادركهُ رسول من قِبَل امير المؤمنين وألقى اليهِ كتاباً فخشيةً ان يكون الكتاب المذكور مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد اجَّل فتحهُ حتى يدخل ارض مصر وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجدِّ السير حتى امسى المساء فسأل اين نحن فقيل لهُ في العريش فعلم انهُ دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هناك وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يدهِ كتاب الخليفة ففضَّهُ بكل احترام وتلاهُ على الجمهور بصوتٍ عالٍ وهو

(١) من كتاب تحت الطبع في تاريخ مصر الحديث تأليف الاديب الفاضل جرجي افندي زيدان

(٢) وهي قرية تدعى الآن (رفح) تبعد نحو عشر ساعات عن العريش

"بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها وابا اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامضِ واعلم اني مدٌّدك" فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً ابن نحن يا قوم فقالوا في العريش فقال وهل هي من حدود مصر ام الشام فاجابوا انها من مصر فقال اذاً بنا اذعاناً لامر الله وامر امير المؤمنين وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة آلاف رجل وجعل يخترقها جنوباً في قسمها الشرقي وكان عددهم يزيد يوماً فيوماً ممَّن كان ينضمُّ اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يمرُّون بها في طريقهم . فكان اوَّل موضع قوتل فيه الفرما قاتلت الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله عليه وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه

ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الاَّ بالامر الخفيف حتى اتى بلبيس فقاتلوهُ بها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بلبيس ارمانوسة ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فاحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاباً لوده فسيَّر اليه ابنتهُ مكرمة في جميع مالها فسرَّ ابوها بقدومها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مرَّ بجانب الجبل المقطَّم فاشرف على حصن بابل او بابلون[1] المشاد على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة وكان حصناً منيعاً رفيع العماد الى شرقيه الجبل المقطم وبينها قطعة من الارض لا شيء من العمارة فيها الاَّ بعض الاديرة والكنائس ثم نظر الى الغرب فاذا النيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيدهُ مناعةً والى ما وراء النيل ارضٌ قد كستها الطبيعة من جمالها خضرة بين اعشاب واشجار خصبة وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسر من خشب وكذلك فيما بين الروضة والجيزة يمر عليها الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هذه الى البرّ الغربي وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب مصطفَّة بعضها بجذاه بعض وموثقة بسلاسل من حديد ومن فوق المراكب اخشاب مدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات

ثم تطلَّع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اتلفت على كاهل الدهر فعجز عن هدمها ثم رمى بنظره الى جنوبي اهرام الجيزة فاذا ببقايا منف العظيمة

---

(١) ويسميه بعض مؤرخي العرب باب اليون ولهم فيه اقوال اظهرها انهُ حصن بناهُ الفرس عند قفلكم مصر ودعوهُ بابل عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم ومكانهُ الآن مكان قصر الشمع وهو بعيد من ضفة النيل الآن لان النيل قد تغير مجراهُ بعد ذلك

ترهب القلوب لما يتجلى فيها من العظمة والشوكة ومن جملتها اهرامها المعروفة الآن باهرام سقاره

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال حيث مصرُ القديمة اليوم ولم يكن هناك الاَّ بعض المزارع والغياض وجعل يسرح نظرهُ ويتأمل بما يتهددهُ من الاخطار في مقاومة هذا الحصن ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهيهِ النظر يخترقهُ النيل المبارك على غربيهِ آثار منف والاهرام وعلى شرقيهِ ذلك الحصن وفيهِ حشدت جنود المصريين وقد تأهبوا للدفاع ولم يكن قد رأى شيئاً من مثل ذلك فيما مرَّ بهِ من البلدان فعظم عليهِ الامر الاَّ انهُ عاد الى عزمهِ عندما تصور مقدار ما يلحق بهِ من العار اذا عاد خائباً ومقدار ما يقع في يدهِ من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن على انهُ اذا لم يفز في جهادهِ هنا واستشهد ففي الآخرة ما هو افضل مآباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انهُ حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا والسفلى ومعظم سكانها من القبط وكانت عاصمة حكومتهِ منف على الضفة الغربية واما هذا الحصن فقد اتخذهُ مركزاً حربياً ليمنع العرب من المرور الى عاصمتهِ والمقوقس هذا مع كونهِ يونانيَّ الاصل فانهُ كان من حزب الوطنيين ويقال انهُ كان بينهُ وبين الرسول مكاتبة وعلى كلٍّ فانهُ لم يكن لهُ ان يفعل ما يشاء فلما علم بقدوم جيوش الاسلام جهز حامية تحت قيادة احد كبراء جيشهِ المدعو الأعبرج وجاء ولما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن

اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فابطأ عليهِ الفتح فكتب الى الخليفة يستمدهُ فامدَّهُ باربعة آلاف عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير ابن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصهُ "اني قد انفذت اليك اربعة آلاف على كل الف منهم رجل مقام الف"

فانفذ عمرو احد قوادهِ ولعلهُ حذافة بخمسمائة فارس ليسيروا الى الجهة الثانية من الحصن من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد حفروا خندقاً وجعلوا لهُ ابواباً وبذروا في اقنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلوا الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الاَّ النيل وكان حول ذلك الحصن خندق فلم يستطع العرب الهجوم عليهِ واستمر رمي السهام طويلاً صباحاً ومساء ثم تشاور عمرو والزبير بشأن ذلك فاعتمدا على تشديد الحصار ففرقا الرجال حول الخندق والح عمرو على الحصن ووضع عليهِ المنجنيق ثم جعل يخابر معهم بشأن التسليم فلم يفعلوا على ان المقوقس كان ممن يريدون التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينهُ وبينهم من الضغائن والانشقاقات الناتجة عن الانقسامات الدينية الاَّ انهُ لم يكن

يجرأ على التصريح بغيبته هذه لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولاسيما الأعيرج ولما راى من اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف ان يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة فعمد برجاله الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبروا على الجسر الى الجزيرة ثم تبعه الأعيرج تاركا نفرًا قليلاً من رجاله والعرب غير عالمين. ولما ابطأ النفع قال الزبير "اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين" فعبر الخندق ثم وضع سلمًا الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر عمرو انهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعًا فما شعروا الا والزبير على راس الحصن يكبر والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهاهم ثم كبّر وكبّر الناس معه واجابهم الناس من خارج فظن من كان باقيًا في الحصن ان العرب جميعهم هاجمون فهربوا وعمد الزبير واصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا الحصن وملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة واما هؤلاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالنيل من كل الجهات

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتابًا ونصه "انكم قوم قد ولجتم في بلادنا واجترأتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعلّه ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفًا لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء"

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عليهم عمرو الرسل وكتب الى المقوقس "انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا وان ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين"

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا "رأينا قومًا الموت احب الى احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم وامیرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد

منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم"

فاقسم المقوقس لو ان هولاء النفوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم اذا امكنهم الارض وقووا على الخروج من مواضعهم وما زال على رجال حكومتو حتى وافقوهُ على طلب الصلح فكتب الى عمرو "ابعثوا الينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى وهم الى ما عساهُ ان يكون فيهِ صلاح لنا ولكم"

فبعث عمرو ابن العاص عشرة نفر احدهم عباد ابن الصامت وكان هائل المنظر اسود اللون طوله عشرة اشبار وجعلهُ متكلم القوم وامرهُ ان لا يجيبهم الى شيء دعوهُ الاّ احدى هذه الثلاث خصال قائلاً ان امير المؤمنين قد تقدم اليّ في ذلك وامرني ان لا اقبل شيئًا سوى خصلة من هذه الثلاث خصال فركبوا السفن الى ان انوا المقوقس ودخلوا عليهِ فتقدم عبادة في صدر اصحابهِ فهابهُ المقوقس لسوادهِ وعظم جثتهِ وقال نحّوا عني هذا الاسود وقدموا غيرهُ يكلمني فاجابوا ان هذا الاسود افضلنا رأيًا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعنا الى قولهِ ورأيهِ وقد امرنا الامير ان لا نخالف لهُ امرًا فقال المقوقس وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدمًا عليكم وهو اسود وانما ينبغي ان يكون دونكم فقالوا كلاّ وان كان اسود فهو افضلنا

فقال المقوقس لعبادة "تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك" فتقدّم عبادة اليهِ وقال "قد سمعت مقالتك وانّ فيمن خلفت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سوادًا مني وافظع منظرًا وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد ولّيتُ وادبر شبابي وانّي مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله وابتاع رضوانهِ وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الاّ ان الله عز وجل قد احلّ لنا ذلك وجعل ما غنمنا منهُ حلالاً وما يبالي احدنا ان كان لهُ قنطار ذهب او كان لا يملك الاّ درهمًا لان غاية احدنا من الدنيا اكلة ياكلها يسدّ بها جوعهُ للياهِ ونهارهِ وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الاّ ذلك كفاهُ وان كان لهُ قنطار من ذهب انفقهُ في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يدهِ ويبلغهُ ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيمًا ورضاؤها ليس رضاء انما النعيم والرضاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا بهِ نبيُّنا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الاّ ما يسك بهِ جوعهُ ويستر عورتهُ وتكون همتهُ وشغلهُ في رضوانهِ وجهاد عدوهِ"

فلما سمع المقوقس منهُ هذا الكلام قال لمن حولهُ بلغتهم هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظرهُ وان قولهُ لأهيب . ان هذا واصحابهُ اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن

ملكهم الا سيغلب على الارض كلها ثم اقبل المقوقس على عبادة ابن الصامت فقال له "ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغنم ما بلغنم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرا وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلة ما بين ايديكم ونحن نطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولاميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم به"

فقال عبادة "يا هذا لا تغرنّ نفسك ولا اصحابك اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن به وان كان ما قلتم حقا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا من آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وما شيء اقرّ لاعيننا ولا احبّ لنا من ذلك وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولانها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزّ وجلّ قال لنا في كتابه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما منّا رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يردّه الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربّه اهله وولده وانما همّنا ما امامنا . واما قولك انا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبيّنه فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك أمرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين انبيائه ورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نحفل اذاكم ولا التعرّض لكم وان أبيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان تعاملكم على شيء ترضى به نحن وانتم في كل عام ابدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم

مَن ناواكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم وتقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الاَّ المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينهُ غيرهُ فانظروا لانفسكم"

فقال المقوقس "هذا ما لا يكون ابدًا ما تريدون الاَّ ان تتخذونا عبيدًا ما كانت الدنيا"

فقال عبادة "هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت"

فقال المقوقس "فلا تجيبونا الى غير هذه الثلاث خصال"

فرفع عبادة يديه الى السماء فقال "لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم"

فالتفت المقوقس اذ ذاك الى اصحابه فقال قد فرغ القوم فما تريدون

فقالوا أيرضى احدٌ بهذا الذل اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابدًا ان نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين غيرهُ لا نعرفهُ واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيدًا فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان تضاعف لهم ما اعطيناهم مرارًا كان ادون علينا

فقال المقوقس لعبادة "قد أبى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنّيتم وتنصرفون"

فقال عبادة واصحابهُ لا . فقال المقوقس عند ذلك لاصحابه اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبهم اليها طائعين لتجيبنّهم الى ما هو اعظم كارهين

فقالوا واي خصلة نجيبهم اليها قال اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم ان تقدروا عليهم وان تصبروا صبرهم ولا بدَّ من الثالثة قالوا فنكون لهم عبيدًا ابدًا قال نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين على انفسكم واحوالكم وذراريكم فاطيعوني من قبل ان تندموا" فاذعن القوم للجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونهُ

فقال المقوقس لعبادة "اعلم ايها الامير اني لا ازال حريصًا على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال التي ارسلت اليَّ بها فاعطني ان اجتمع به انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابه فان استقام الامر بيننا تمَّ ذلك جميعًا وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه

فرجع عبادة الى عمرو بما كان فاستشار اصحابهُ فقالوا لا نجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئًا وغنيمةً كما صار لنا الحصن وما فيه

فقال عمرو قد علمتم ما عهد اليّ امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد اليّ فيها اجبتهم وقبلت منهم ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقا على الصلح بان يعطى الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهذا نص الشروط

"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهِ ممّن جنى نصرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممّن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومَن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليهِ ما عليهم ومَن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنهُ ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثًا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمتهِ وذمة رسولهِ وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا راسًا وكذا وكذا فرسًا على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناهُ وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب"

ولما تمّ الصلح على هذه الصورة كتب المقوقس الى ملك الروم كتابًا يعلمهُ بالامر كلهِ فكتب اليهِ ملك الروم يقبح رأيهُ ويعجزهُ ويرد عليهِ ما فعل ويقول في كتابهِ ان ما أتاك من العرب اثنا عشر الفًا وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وحبّبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومَن معك اكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوّة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومَن معك من الروم في حالة القبط اذلاء فقاتلهم انت ومَن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوّتكم وعلى قدر قلّتهم وضعفهم كأكلة ناهضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابًا الى جماعة الروم

فأقبل المقوقس الى عمرو فقال لهُ ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب اليّ والى جماعة الروم ان لا نرضى بصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم ولم اكن

لاخرج ما دخلت فيه وعاقبتك عليه وانا سلطاني على نفسي ومَن اطاعني وقد تمّ صلح القبط ما بينك وبينهم ولم يأتِ من قبلهم نقض وانا متمّ لك على نفسي والقبط مئونون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم واما الروم فانّا منهم براء وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال لا تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه فهم مئونون لك على ما تحب واما الثانية ان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا فانهم اهلٌ لذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني واما الثالثة فاني اطلب اليك ان انا متُّ ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية. فأجابه الى ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعًا ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعوانًا

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولاً بكتاب يخبرهُ بما تمّ بينهُ وبين المقوقس فاجابهُ منشطًا وسألهُ ان يصف لهُ مصر فأجابهُ

"ورد اليّ كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءهُ ويسألني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات يمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لجاري الشمس والقمر له اوان يدرُّ حلابهُ ويكثر عجاجهُ وتعظم امواجهُ فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الاّ في صغار المراكب وخفاف الغوارب وزوارق كانهنّ الخلايل ورق الاصابل فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كاول ما بدا في جريته وطمى في درته فعند ذلك تخرج مئة محتورة ومئة مختورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لنبهم ما سعوا من كدهم فنالهُ منهم بغير جدهم فاذا احدق الزرع وأشرق سقاهُ الندى وغذّاهُ من تحت الثرى فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها ويغرُّ قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها وان لا يستأدي خراج ثمرة الاّ في اوانها ان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها فاذا تقرّر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق في الملك والمال"